

المقالات

الجيش العثماني

* فرنسا والمانيا في البلاد العثمانية *

لما نقلت الشركات البرقية خبر انقطاع العلاقات السياسية بين الدولة العلية والدولة الفرنسية كان هذا السؤال اول سؤال وجهه القارىء الى نفسه وهو : ما هي حالة الجيش العثماني الآن هل في استطاعته ان يرد عن البلاد غارة عدو قوي على افتراض شوب نار الحرب وان كان هذا الافتراض امراً مستحيلاً كما يعلمه الواقفون على العلاقات الدولية . ولماذا غيزت فرنسا سياستها مع الدولة العلية بخافتها هذه المخافة مع انها صديقتها الكبرى من ايام الملك فرنسيس الاول الذي حالفها حتى على الاوروبيين انفسهم . وجواباً عن هذا السؤال ننقل عن العالم البلجيكي الميسواوفر برش مدير التعليم العلمي العالي في وزارة المعارف في بلجيكا ما كتبه عن الجيش العثماني وعلاقات فرنسا والمانيا بالدولة العلية في كتاب نشره في العام الماضي وعنوانه « سياحة في الشرق . تركيا واليونان » فنقول قال الكاتب المذكور في الصفحة ٣٣٧ يصف الجيش العثماني الذي شاهده منذ سنتين في حفلة السلامك في الاستانة ما خلاصته

« ولقد قال لي وكيل بلجيكا في الاستانة في يوم جمعة . اليوم ننعقد حفلة السلامك فاذهب لمشاهدتها ولا تفوتها . فقصدت الجامع الحميدي مع بعض الرفاق في الساعة العاشرة لان الحفلة تبتدىء عند الظهر فوصلت الى الكشك الخاص بالسفراء والاجانب وهو قائم تجاه الجامع فوجدنا فيه ضابطاً تركياً من الطف الضباط واطرفهم فاستقبلنا وادخلنا حالماً اربناه اوراقنا . وكان دخولنا الى قاعة الزائرين ولم يكن فيها سوى اربع نوافذ غاصة بالانكليز والانكليزيات ففتشنا عن مكان امام النوافذ نجلس فيه ونرى منه فلم نجد مكاناً والانكليز جرياً على عادتهم لم يتنازل احد منهم عن مكانه لوحده من السيدات اللواتي كن معنا . ولكن وكيل بلجيكا كان قد قال لنا انكم اذا لم تجدوا مكاناً موافقاً في النوافذ

فاقصدوا السطح المحاذي للقاعة واتخذوا لكم مجالس فيه . فذهبنا الى السطح وجلسنا في الصف الاول فلم يلبث ان تبعنا بعض الباجيكيين وكثيرون من الالمانيين الذين كانوا يتكلمون بصوت مرتفع ويصقون الى بعيد

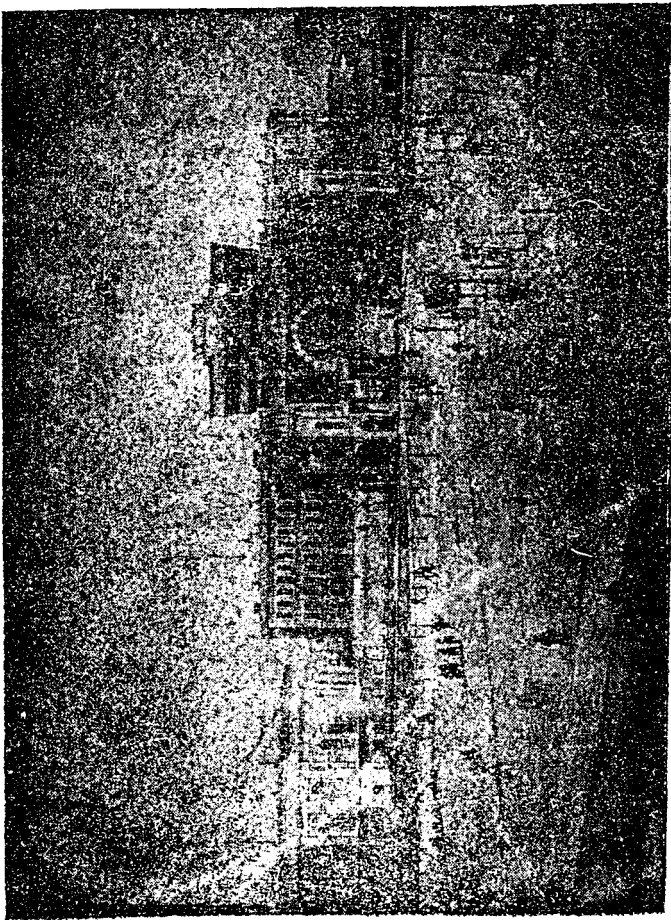
فقبضنا هناك ساعتين في الانتظار واذا بالفراء وعيالمهم قد بدت طلائهم وكانوا يلبسون ملابس متناهية في الفخفة والزينة لان الحكومات توصي سفراءها في جميع بلاد الشرق ان يحسنوا انفاق الزينة الخارجية . وبعد ذلك وصلت الجنود

وكان اول من وصل منهم الالمان المشاة لتقدمه الموسيقى العسكرية . فرأى اماننا بنظام بدیع وقوة اعجبنا بها . وكانت جنوده تلبس الطربوش فكان لها به منظر جميل لان الطربوش يكبر قامة الانسان ويجعل له مراءى حريماً مدھشاً . وكانت الموسيقى التي نتقدمهم تصدح بالشيد الالماني ببراعة واحكام يستلبان الالباب . وقد كان بجانب الماني كان من ضباط الجيش الالماني فجعل يشير الى ضباط الجيش العثماني وهو يقول . هذا فلان من كولينجسبرج وذلك فلان من فرانكفور وهذا فلان من كوبلانس . ثم ان هذه الجنود اصطفت صفين على جانبي الطريق . ولم تفرغ من ذلك حتى طلعت طلائع الالمان الفرسان مقدمة الصنوج المفرحة التي تفرع انعاماً مرفضة والذي يلاؤه منظره العين بهجة والقلب سروراً . فقصدهم هذا الآلاي السهل المخصص بالمركبات واصطف فيه

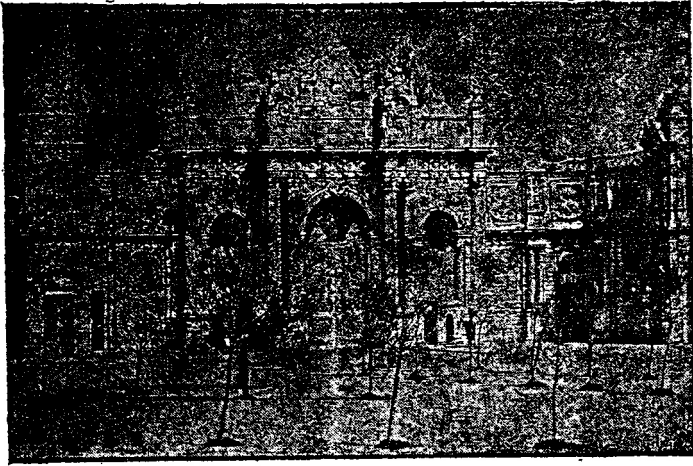
واذا بالرجل الالماني الذي تقدم ذكره قد اخذ يقول « انظروا انظروا لقد جاء الحرس السلطاني . جاء ابطال ثساليا اشجع جنود الارض كلها . انظروا انظروا فانهم جميعاً تحت قيادة ضباطنا ولذلك لا يغلبهم احد . فالتفتنا فوجدنا الجنود الزواف قد بدت وعلى رؤوسها العمام الخضراء وكلهم من نخبة رجال الجيش العثماني . وفي هذه الجنود قال الجنرال سكولف يوم حصار بلغنا « اذا قد عزم اصحاب العمام الخضراء على منعي من اختراق هذا المربع ما لم يقتلوا عن آخرهم » وكانت هذه الجنود سائرة نحو قصر بلدز القائم على مسافة ثلاثمائة متر من الجامع الحميدي

ثم تلتهم جنود البحرية وجاء بعدهم الزواف لابسو الطرايش وهم رجال حسنو المنظر من فريقيهم الى قدمهم . وكان منظرهم ومشيتهم يدلان على انهم من ذلك النسل القادر القوي . وقد قابلتهم في ذهني بالجنود اليونانية التي رايتها في آثينا فنجبت كيف خطر لليونان ان يتوقعوا النصر لجنودهم في حربهم مع الدولة التي لديها جنود كهؤلاء الجنود . ولا انكر ان في الجيش اليوناني رجالاً اقوياء ولكني ارى ان الجنود اليونانية على الاجمال لا تقاس

بالجند العثماني . اليس الاميرال جوليين دي لا كرافير هو الذي قال « ان للجندي العثماني صفات حربية جلية . فاذا ولي قيادته ضباط خبيرون ادهش العالم باعماله كما ادهشه في مضي . وليس ينقص الجيش العثماني جنود اوفواد كبار ولكنه ينقصه ضباط صفار » وقد ادركت المانيا هذا النقص فتقربت من الدولة العثمانية لاصلاح جيشها رغبة في الاعتراف عليه في اوفات الشدة وتزلفاً الى الحكومة لتمنحها في الاناضول الامتيازات التي تمنى نفسها بها فضلاً عن اتخاذها جيش الدولة سوراً دون روسيا



نظارة الحربية في الاسطانة



﴿ باب العسكرية في الاستانة ﴾

وهو مقام قائد الجيش العام

ولما شاهدتُ ما شاهدتُ من نظام الجيش العثماني وترتيبه اخذت اقول في نفسي ان عدم مداخلة اوربا ايام الحوادث الارمنية ناشئ عن اسباب قوية ربما كان منها الخوف من حراب الجنود العثمانية

ولكن ما لنا ولهذه الامور فلنعد الى حفلة السلامك . فان الجنود ما انتهت من الاصطفاف في ثلاثة صفوف من الجامع الى سراي يلدز حتى قدمت فرقة واخذت تكنس الطريق ونذر فيها الرمل التنظيف . ثم جاءت فرقة اخرى وصارت تنفض ملابس الجنود التي كانت مصطفة . وبعد برهة انتصف النهار وخرج الموكب السلطاني من قصر يلدز . فصدحت حينئذ الموسيقى وصرى في الجمع ارتعاش فتطاوت الاعناق الى الموكب . فمر فيه رجال الدولة مع ابنائهم ومركبات الحرم السلطاني والموظفون بلباسهم الرسمية . ثم مرت المركبة السلطانية تجرها جياد كريمة وجلالة السلطان جالس فيها بهيئة تدل على عدم الاكتراث بشيء مما حوله . ولما دنت المركبة من كشك السلامك هتف الالمانيون الذين كانوا معنا هتافاً شديداً اكراماً لجلالته فرجع جلالته راسه اليهم وحينئذ استنار وجهه بابتسام ثم سلم عليهم باحتاء الرأس وظلت المركبة سائرة حتى انتهت الى الجامع وفي اثناء الصلاة جاءنا احد رجال التشریفات ودعانا باسم جلالة السلطان الى تناول المربطات في حديقة من اجل الحدائق فاجبنا وتحققنا حسن الضيافة في قصر يلدز

وبعد الصلاة انتظم سلك الجنود كما كان وخرج جلالة السلطان عائداً في «فايتون»
يجرها فرسان ايضاً كركمان وكان جلالاته قابضاً على عنانها بيده ووراء المركبة رجال
الدولة واكابر موظفيها مشاة يتبعونها

هذا ما قاله السائح عن الجيش العثماني . اما ما قاله عن علائق فرنسا والمانيا بالدولة
فهذه خلاصته . قال

كنت احادث بعضاً من راهبات المحبة الفرنسيات في طريقنا الى «بروصه» فسألتهن
اليس الافضل لكن ان تحميين بالمانيا في البلاد العثمانية . فصحن جميعاً من فم واحد
«احمنا يارب من حماية المانيا» ثم قالت احداهن ان المانيا امبراطورية بروتستانتية فكيف
تحمي الكاثوليك حماية حقيقية . ومع ذلك فاننا لا نطلب حماية دولة اجنبية ونترك وطننا .
وقد قلن ذلك والدموع في عيونهن

وبعد برهة اخذ احد المرسلين الحاضرين يشرح لي اسباب الزحام الشديد القائم بين
فرنسا والمانيا في البلاد العثمانية . فقال ان فرنسا كانت في عام ١٨٩٢ تباع من بضائعها في
الاسواق العثمانية ما قيمته ٦٠ مليون فرنك فنقصت هذه القيمة في عام ١٨٩٣ الى ٥٦
مليوناً وفي عام ١٨٩٤ الى ٥٣ مليوناً وفي ١٨٩٥ الى ٥١ مليوناً وفي ١٨٩٦ الى ٤١ مليوناً
وفي ١٨٩٧ الى ٣٩ مليوناً اي ان قيمة ما تباعه فرنسا في البلاد العثمانية لم تعد تساوي اليوم ١١
في المائة من مجموع المبيعات الاوروبية . اما المانيا فلم تكن لها تجارة مع تركيا في سنة
١٨٧٠ ولكن لم تات هذه السنة حتى بلغت تجارتها معها ٤٠ مليون فرنك فكأنها في مدة
ثلاثين سنة قد ساوت فرنسا التي مضت عليها قرون وتجاريتها موصولة الاسباب
مع البلاد العثمانية

وان سألت عن اسباب تقدم المانيا ونكوص فرنسا اجبتك ان المعامل الفرنسية تعتمد
بالاكثر في ترويج بضائعها على «عملاء» من اليونان والالمان والايطاليان فيجدهونها
ويربحون على ظهورها . اما المعامل الالمانية فانها ترسل عمالاً المانيين مخصوصين من قبلها ولتخذ
لها عملاء دائمين في الاسواق المهمة فيلح هؤلاء العمال والعملاء في سبيل عرض بضائعهم
وتصرفها الحاحاً يفضي الى ترويجها . وفضلاً عن ذلك فان لهم شركة كبيرة تدعى شركة
التصدير وهي ذات فروع في مصر واليونان والاستانة وسالونيك وازمير ومرسين وبيروت
وحلب ودمشق وبافا وحيفا وبروصه . وهذه الفروع تعرض على المشتريين جميع اصناف

البضائع التي يطلبونها ويكون لديها مثال منها لان المشترين في الشرق يلذ لهم شراء الاشياء التي يشاهدونها ويكرهون الشراء بلا مشاهدة ولا فحص . وما عدا هذا فان المعامل الالمانية تصنع بضائعها حسنة الظواهر رخيصة الثمن طبقاً للذوق الشرقي . واما المعامل الفرنسية فانها تحسب انه يجب على ابن الشرق ان يخضع لذوق ابن باريز ولذلك لا تصنع بضائعها الا على ذوقها . وقد آلت المانيا على نفسها ان تحتكر جميع السكك الحديدية في الاناضول فاذا تم لما ذلك صارت صاحبة الكلمة التجارية العليا فيها ولم يبق لفرنسا سوى الخطوط الحديدية الصغيرة في سوريا . فمسيكنة انت يا فرنسا ما هذا النكوص امام المانيا . اذكر انه لم يكن احد في القرن السادس عشر قادراً على الاتجار في البلاد العثمانية الا بواسطتنا وتحت رايئنا بناءً على الامتيازات التي كانت لنا . اما الآن فقد سبقنا بمنظروننا . ولا ريب ان ذلك عقاب لنا من الله على خطيئة الملك فرنسيس الاول . فان هذا الملك خان اوربا في ذلك الزمان وحالف الدولة العثمانية عليها . فكافأته الدولة على ذلك بمنحها اياه الامتيازات التي تقدم ذكرها والتي كانت كأنها الثلاثون درهماً التي قبضها يهوذا . والغريب العجيب ان يكون فرنسيس الاول قد حالف تركيا على امبراطرة الالمان الذين كانوا اعداءه وان تركيا تحالف اليوم عليه امبراطرة الالمان الذين هم اعداء فرنسا »

سوريا القديمة والحديثة

بقلم حضرة العالم الفاضل جبرائيل ضومط استاذ البيان في الكلية الاميركية في بيروت وهي الخلية التي الفاهما في المحلة السنوية التي عقدتها هذه الكلية في ١٠ يوليو الماضي ومنحت جنابه فيها رتبة معلم في العلوم اعترافاً بنضله

ايها السادة والسيدات الكرام
بعد الحمد والدعاء اعتذر اليكم عن نفسي اني لست خطيباً ثم استأذنكم ان ابدأ بموضوعي رأساً فاقول
سوريا على ما قاله كثيرون من ثقاة الغربيين اسم مقتطع من اشوريا يعني بلاد اشور وقد ورد في كتب منقذني المؤرخين وثقاتهم كهرودتوس وامثاله وارادوا به كل البلاد التي يحدها الفرات والدجلة الى خليج فارس شرقاً والبحر المتوسط غرباً وآسيا الصغرى شمالاً والعربية وجنوباً . الا ان المتأخرين عن اولئك اطلقوا هذا الاسم على ما هو الشائع الآن

اعني على جزء من هذه البلاد يحده خطٌ يمرّ بخليج اسكندرونه على موازاة خطوط العرض شمالاً و بعض الفرات و بادية الشام شرقاً والعربية جنوباً والبحر المتوسط غرباً

* تقسيم سوريا الطبيعي *

ونقسم سوريا الى ثلاثة اقسام طبيعية (الاول) سوريا الشمالية وتبتدئ من جبال طورس شمالاً وتنتهي عند مدخل حماه جنوباً ومن مدنها حلب وانطاكية وحماه . (الثاني) سوريا المتوسطة وتبتدئ من مدخل حماه شمالاً وتنتهي جنوبي صور جنوباً . ومن مدنها المشهورة في الداخلية حمص وتدمر ودمشق وبعبك وعلى الساحل طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور . (الثالث) سوريا الجنوبية وهي ما بقي من سوريا وتشتمل على ما يُعرف قديماً ببلاد فلسطين او ارض كنعان من مياه الحولة شمالاً الى العريش جنوباً . ومن مدنها الساحلية عكا وحيفا ويافا وغزة والعريش ومن الداخلية طبرية والناصره وناבלس واورشليم والخليل

* تقسيم سوريا السياسي *

اما تقسيم سوريا السياسي فلما كان ولا يزال يختلف باختلاف الازمنة رايت ان ادع التفصيل فيه واكتفي بذكر الامم التي سكنت البلاد من اول عهد التاريخ الى الآن واشير الى مواطنهم فيها مع الاملاخ الى ما طرأ على مواطن تلك الامم من التقلبات وما تعاقب عليهم من الدول الى ان صارت جميع هذه الشعوب والممالك شعباً واحداً ومملكة واحدة عثمانية في ايام نغرسلاطيننا العظام جلالة مولانا عبد الحميد خان . والغاية من كل ذلك ان اتوصل الى بيان اسباب عظمة سوريا قديماً وما بُنِيَ عليه عظمتها في المستقبل . والذي اساله من كرم اخلاقكم ان تعبروني جانباً من التفاتكم ولكم عليّ ان اختصر بقدر ما في الامكان

ايها السادة . في ايام الآباء اي من نحو اربعة الآف سنة تقريباً كان العالقة والخوريون يسكنون البلاد جنوبي بحيرة لوط الى راس خليج العقبة والرفائيون شرقي الاردن من ارض باشان شمالاً الى وادي ارنون جنوباً . والحثيون والاموريون والعمونيون الفلسطينيون غربي بحيرة لوط الى شواطئ المتوسط . واما بقية البلاد غربي الاردن فكان البيسويون في اورشليم والخوريون في نابلس والكنعانيون في البلاد من جنوبي صور الى يافا واشقلون كل الساحل البحري ومعظم السهول الخصبة فيما يليه من منابع الاردن الى مصبه في بحيرة لوط . وكان ايضاً الحثيون في سوريا الشمالية والاراميون والفينيقيون في سوريا المتوسطة

هولاء على السواحل واولئك في الداخلية

ثم بعد دخول الاسرائيليين ارض كنعان صارت شعوب سوريا ومواطنهم فيها على ما ياتي . العالقة والفلسطينيون والادوميون والموايون والعمونيون والاسرائيليون وبقايا الكنعانيين في سوريا الجنوبية . والاراميون والفينيقيون في مساكنهم الاولى في سوريا المتوسطة . والحثيون اسىاداً في سوريا الشمالية . وما زال الحال كذلك نحواً من ثلاث مئة سنة تارة يتقوى الموايون والعمونيون وتارة العالقة والمدبانون وتارات الفلسطينيين الى ايام صموئيل النبي وكان الفلسطينيين حينئذ في منتهى قوتهم والاسرائيليون في منتهى ضعفهم ذلك لانهم كانوا قد تفرقت عصبيتهم وانحلت جامعة اسباطهم التي كانت لهم ايام يشوع . فسعى صموئيل النبي في ضم شملهم وتوحيد كلمتهم واقام عليهم ملكاً شاول ابن قيس من سبط بنيامين فملك اربعين سنة وقام عليهم بعده داود النبي فخارب حروبهم المشهورة وانتصر على اعدائهم والام حواليه شمالاً وشرقاً وجنوباً وغرباً . وفي ايامه بلغ اليهود منتهى عزمهم وامتدت سلطتهم على كل سوريا الجنوبية وعلى سوريا المتوسطة ما عدا الساحل كل بلاد الاراميين حتى تجىء الى مدينة نفثح على الفرات شمالي تدمر . فصارت ام سوريا ومواطنهم فيها ايام داود وايام سليمان ابنه على ما ياتي

اليهود اسىاد في سوريا الجنوبية واخوانهم وابناء عمهم الموايون والعمونيون ومن لف لفهم عبيد مستعبون لهم فيها ايضاً . والاراميون يؤدون الجزية للاسرائيليين في سوريا المتوسطة ما عدا السواحل البحرية على البحر من عكا جنوباً الى ارواد شمالاً . والحثيون في سوريا الشمالية من حماه الى كركيش . الا ان الاراميين كانوا قبيل ذلك قد تداخلوا على الحثيين في كثير من مساكنهم الجنوبية وازاحوهم عنها الى الجهات الشمالية

لكن لم يلبث ان طرأ بعض التغيير على الحالة المارة . فان الاسرائيليين رجعوا بعد موت سليمان الى سالف تنافسهم وتحاذلهم فانقسمت مملكتهم الى مملكتين مملكة اسرائيل في الشمال ومملكة يهوذا في الجنوب فقضي بذلك على عز اليهود وخرج عن طاعتهم اكثر الامم الخاضعة لهم واستمر الحال على ذلك نحواً من مئتي سنة وسوريا على ما نذكره : صور في الساحل سيدة البحار في المعمور وابناؤها منتشرون في العالم ويدهم زمام التجارة كلناهم ابناء البريطانيين في الزمن الحاضر وربما كانوا اشد نشاطاً في الاعمال واكثر اقداماً على الاسفار رغبة في المكاسب والارباح . ومملكتنا يهوذا واسرائيل مما يلي الساحل لتسلمان تارة وتخصان تارات . والاراميون في سوريا المتوسطة يتوثبون تارة على الاسرائيليين وتارة على

الحثيين . واما في سوريا الشمالية فكان الحثيون قد تراجعت احوالهم ونقص ظلمهم بما كان من مناوأة الاشوريين اهل نينوى لهم فتركوا قادس عاصمتهم ايام رعمسيس الى كركيش على الفرات

وفي هذه الاثناء عظم شان الدولة الاشورية فاخذت تغزو الى سوريا كلما آتست من نفسها قوة او بالحري كلما قام على سريرها ملك يرغب في المجد العسكري من جهة وفي انتهاب الاموال من جهة اخرى وتكررت غزوات الاشوريين حتى كانت ايام سرجون احد عظماء ملوكهم فجهز هذا جيوشه وعبر الفرات الى كركيش فحاصرها وما زال عليها حتى استفتحها عنوة ونقل اهلها الى بلاد اشور وهكذا كان فعل في دمشق والسامرة فصار من ثم كل البلاد اعني سوريا الشمالية والمتوسطة وبعض الجنوبية ولايات اشورية ما عدا الساحل البحري واليهودية فانها بقيا على الجزية . واستمر الحال على ذلك الى ايام نبوخذ نصر فوجه غاراته الى سوريا واجلت غزواته فيها عن انقراض استقلالية جميع شعوبها وصيرورتها ولاية بابلية يحكمها ولاة من قبل البابليين . ثم جاء بعد البابليين الفرس ومن بعد الفرس اليونان ومن بعد اليونان الرومان وحكم الرومان سوريا نحواً من سبعة مئة سنة من سنة ستين قبل المسيح الى ان استخلصها العرب من ايديهم سنة ٦٣٨ بعد المسيح

ثم ما زالت سوريا في ايدي المسلمين نثدا ولها منهم دولة بعد اخرى الى ان كانت الحروب الصليبية فاستولى حينئذ الصليبيون على الشواطىء البحرية من انطاكية الى يانا وغزة . لكن لم تات سنة ١٢٠٠ للمسيح وفي البلاد واحد منهم وذهبت آثارهم جملة

وفي بداءة الجيل الخامس عشر كانت غزوة تيمورلنك فخر البلاد تخريباً وقد اكثر تيمور هذا من القتل والنهب والسبي بما لا تزال البلاد تذكره الى اليوم لشدة ما كان من وقعه في نفوسهم . واشد ما كان ضرره في البلاد انه اخذ من دمشق وسائر البلاد ارباب الفضل والصنائع وكل ماهر في فن من الفنون اي فن كان وفرق هؤلاء الطوائف على رؤوس جنده وامرهم ان يوصلوهم الى سمرقند وهكذا فعلوا . والظاهر ان جنوده قتلوا اغلب هؤلاء وهم راجعون الى بلادهم فحسرت بذلك سوريا خسارة لم تعوض بعد

وفي سنة ١٥١٦ دخلت سوريا في حوزة العثمانيين وفي سنة ١٨٧٥ قدر الله لها ان اقام على سرير السلطنة العظمى جلالة الغازي مولانا السلطان عبد الحميد خان الثاني فدخلت على عهده الممالك العثمانية في طور جديد وستبلغ فيه بعونه تعالى ولا سيما سوريا مبلغاً من العز والعظمة لم يكن لها من قبل ان شاء الله

ايها السادة الكرام . لم يحظر في بالي اصلاً ان تغافل في تاريخ سوريا لا قديماً ولا حديثاً
انما اردت بما ذكرته من الفنايكة التاريخية ان احضر امامكم صورة اجمالية لسوريا منذ
اول امرها الى اليوم توطئة للسؤالات الاربعة الآتية وهي :

« أولاً » ابناء من هم سكان سوريا الحاليين ؟

« ثانياً » ماذا كان سبب عظمة سوريا قديماً ؟

« ثالثاً » ماذا كان سبب انحطاطها الى الآن ؟

« رابعاً » بماذا تقوم عظمتها المستقبلية . وبعبارة اخرى بماذا ترجع الى مقامها الذي
فقدته جملة من مدة لا تزيد عن الخمسة سنة وانزاحت عن آخر موقف منه منذ تم فتح
خليج السويس ؟

السؤال الاول

ونبدأ بالسؤال الاول اي ابناء من هم سكان سوريا الحاليين؟ والجواب عن هذا السؤال
يستدعي معرفة الشعوب الذين كانوا في سوريا قديماً والشعوب الذين في البلاد المحيطة بها ايضاً
اما الشعوب الذين كانوا فيها في ايام ملوك اسرائيل فهم كما راينا الادوميون والعمونيون والمويبيون
والاسرائيليون في سوريا الجنوبية والاراميون في سوريا المتوسطة والشالية والفينيقيون في ساحل
البحر . فان قيل واين تذهب بالكنعانيين والحثيين؟ قلت اما الحثيون فكانوا على الراجح المسلمين
على البلاد كالرومانيين بعدهم مثلاً لاسكانها الاصليين ولذلك فلما انقرضت دولتهم انقضوا
من سوريا وبقي اهلها الاصليون اعني الاراميين . واما الكنعانيون فاولى ان يلحقوا بالعبرانيين
لان هؤلاء خالطوهم فزوجوهم وتزوجوا منهم من اول عهد اتصالهم بهم الى ايام السبي ولما
كانوا اقل عدداً من العبرانيين غابت جنسيتهم في جنسية العبرانيين . وروى هذه
المخالطة والامتزاج ما كان بين الامتين من المقاربة في اللغة والاخلاق والعادات . وزاد
في تعجيل الاتحاد ان اليهود كانوا يرون الكنعانيين المغلوبين ارقى واعرق منهم في المدينة
فلم يستكفوا من مصاهرتهم والاختلاط بهم . وكذلك الكنعانيون المغلوبون لم يروا حطة
باصهارهم الى اليهود وامتزاجهم بهم شان الامة المغلوبة مع الامة الغالبة . وعليه نقول ان
شعوب سوريا كانوا مؤلفين من قبيلتين كبيرتين العبرانيين والاراميين . العبرانيون في
الجنوب والاراميون في الشمال وهما شعبتان من الارومة السامية وينضم الى هؤلاء قبيلة
صغيرة اعني الفينيقيين سكان السواحل وهم من الارومة الحامية
واما البلدان المحيطة بسوريا فاذا نظرتم ايها السادة الى الخارطة رأيتم العربية وشواطئ

الفرات تحيط بها جنوباً وشرقاً واسيا الصغرى والبحر المتوسط شمالاً وغرباً ولكن لما كانت جبال طورس تفصل سوريا عن اسيا الصغرى وتجعل المهاجرة من احدى البلادين الى الاخرى امراً صعباً ولما كان اهل اسيا الصغرى يخالفون السورين في اللغة والاخلاق والعادات ويرون في بلادهم من الخصب وجودة الهواء فوق ما يرونه في سوريا كانت رحلاتهم اليها قليلة. ولم ينقل اليها التاريخ ان امة منهم هاجرت اليها وبخلاف ذلك ما هو مشهور عن العربية وشواطئ الفرات. فان اهل هاتين البلادين ما زالوا منذ ايام ابراهيم الخليل الى هذه الساعة يرحلون افراداً وجماعات الى سوريا وعليه فيهمنا تحقيقاً للجواب عن سؤالنا ان نعرف من هم شعوب العربية وشعوب ما بين النهرين وابناء من هم. ومعرفة ذلك ليست من الامور المشككة لانه تحقق ان سكان هاتين البلادين اعني العربية وما بين النهرين هم من العبرانيين والاراميين وابناء عمهم القحطانيين وكلهم من الارومة السامية ومن قبيلة اخرى صغيرة كشوية وهي من الارومة الحامية

ولما أخذ من كل ذلك وهو ما اردت الوصول اليه ان سكان سوريا وسكان العربية وسكان ما بين النهرين جميعهم من ارومة واحدة سامية اختلط بهم من قبل زمن التاريخ شعبة من الحاميين امتزجت بهم وغابت جنسيتها في جنسيتهم حتي لم تعد تميز بوجه من الوجوه. وجميع هؤلاء الشعوب والقبائل كانوا وما زالوا يتشابهون في اللغة والاخلاق والعوائد منذ الاف من السنين الى وقتنا الحاضر. وجميعهم ايضاً على ما علم من احوالهم سريعو الاجابة الى ما يوافق اميالهم ومشاربهم الفطرية متعاصون عما يخالفها وبصعب بل يستحيل ان ينقلوا الى جنسية غير جنسيتهم ولغة غير لغتهم واخلاق غير اخلاقهم. ويكفيني ثبوتاً لهذه الحقيقة ان اشير الى ما كان من امرهم مع دول الفرس واليونان والرومان اولاً ومع دولة العرب اخيراً فانهم تعاصوا على الدول الثلاث الاولى فلم يمتزجوا بهم ولا تجنسوا بجنسيتهم ولا تعلموا لغاتهم الا مكرهين. ومع ان الدولة الرومانية العظيمة المسماة بالدولة الحديدية حكمت في البلاد وجعلتها جزءاً من ممالكها نحواً من ٧٠٠ سنة فمع ذلك لما كان الفتح الاسلامي وانسحبت جنودهم وموظفهم من البلاد كانوا كأن لم يكونوا فيها ولا حكموا اهلها بعضاً من حديد فامتحت آثارهم من اللغة والعوائد والازياء والجنسية. لم يبق شيء من كل ذلك بخلاف امرهم مع دولة الاسلام فانه لم يمض على هؤلاء قرن واحد بعد ان افتتحو سوريا حتي صارت البلاد عربية في لغتها واخلاقها وعوائدها ولا تزال كذلك الى هذه الساعة مع ان الدولة العربية انقرضت من البلاد منذ عدة مئات من السنين وما ذلك

الا لبعد الرومان وُبعد العرب من السوريين في اللغة والاخلاق والعوائد كما ذكرنا

﴿ السؤال الثاني ﴾

ولنتقدم الآن الى السؤال الثاني وهو ما سبب عظمة سوريا قديماً ؟

لعظمة بلاد ما اسباب منها ان يكون في البلاد دولة قاهرة تمدنوحاطها شرقاوغربا وشمالا وجنوبا كالدولة الرومانية مثلاً وهذا لم يكن لسوريا قط واعظم دولة قامت فيها دولة اليهود ايام داود وسليمان . ولكن هذه الدولة لم تتجاوز سوريا بل لم تنبع الا الجزء الجنوبي منها مع بعض النفوذ في الجزء المتوسط واقل منه في الجزء الشمالي

ومنها ان تكون البلاد متسعة المساحة كثيرة عدد السكان كثيرة المياه والانهار وان تكون عشائرها متحدة معاً تضمهم دولة واحدة يجتمعون تحت لوائها لا يتخاذلون عن نصرتها ولا يترصون بها الدوائر انما هم جميعهم على الاجنبي قلب واحد ويد واحدة . وهذا ايضا لم يكن لسوريا قديماً فان مساحتها لا تزيد عن الخمسين الف ميل مربع وانهارها قليلة ليس منها ما يصلح للملاحة وامطارها قليلة ولا سبياً في الجزء الجنوبي منها . واما اهلها فما زالوا عشائر متخاذلة لم تجتمع لم كلمة ولا انضموا تحت لواء واحد وطالما كانوا يترص بعضهم الدوائر ببعض الآخر

ومنها ان تكون البلاد غنية بمعادن الذهب والفضة والحديد والنحاس وهذا لم يكن لسوريا ايضا فانه لم يعرف عنها الى اليوم ان كان فيها معادن ذهب في جبالها او مغاوص لؤلؤ في بحارها

ومنها اتساع التجارة واتقان الصناعة والزراعة . وليس شيء من اسباب العظمة محقق في عظمة سوريا الا هذا السبب . فان اهلها سكان البدو وسكان المدن كلهم كانوا اما تجاراً او متلبسون باسباب التجارة وقد اجمع المؤرخون على ان تجارة الفينيقيين ايام عظمة سوريا بلغت من الاتساع والانتشار مبلغاً قصرت عنه الامم القديمة عن آخرها ولم يكن له مثيل على ما يقولون الا اتساع تجارة الانجليز في الوقت الحاضر . وكذلك اجمع هؤلاء ان الصناعة والزراعة كانتا في سوريا على ارقاها ايام كانت التجارة ايضا على ارقاها وانحطتا بانحطاطها . ولما انحطت التجارة وانحط هاتان معها انحط عز البلاد وعظمتها وهذا ما اريد ان اقيم البرهان عليه وهو موضوع بحث السؤال الثالث اي ماذا كان سبب انحطاط سوريا الى الآن

﴿ السؤال الثالث ﴾

كانت صيدون في ايام يشوع المدينة العظيمة والمتقدمة على جميع مدن فينيقية . ذلك

لأنها كانت اوسعهم تجارة وأكثرهم غنى وارسخ في الصناعة قدماً . لكن ما بين القرن الخامس عشر والثالث قامت المعاهدة البلاسجية واخذت لتعقب الصيدونيين وتزيلهم عن موافهم التجارية في البحر المتوسط فتاخر من ثم غنى الصيدونيين وانحطت عظمتهم على نسبة ما ابترت منهم هذه المعاهدة القوية من المراكز التجارية

ثم ما زالت ثنائهم هذه المعاهدة الى ان جاءت شعبة منهم الى نفس فلسطين واستولت على السواحل من يافا الى غزة واخذت تسابق الصيدونيين في التجارة في نفس بلادهم ثم ادت هذه المنافسة في التجارة الى المنافسة في السياسة ايضاً فان الفلسطينيين لما اثروا وامتدت تجارتهم وكثرت صناعتهم طعموا في الصيدونيين وتوثبوا على بلادهم المجاورة ينتزعون منها مكائناً بعد آخر ويلحقونه باملاكهم الى ان كانت سنة ١٢٠٠ ق م فحملوا على حين غفلة بمراكبهم على صيدافاستقوها عنوة وخربوها وشتوا اهلها في الافاق . الا ان صيدا عاد لها بعد ذلك شي من عزها على نسبة ما عاد لها امتداد التجارة لكن سبقتها صور منذ نكبتها هذه وما زالت سابقة لها الى ان قضي على المدينتين معاً

ولا يمكنني ان آتي على تفاصيل ما طرأ على عظمة صور وكل بلاد فلسطين تبعاً لها ولكن اقول اجمالاً ان صور ما زالت في اوج عظمتها منذ ١٢٠٠ سنة قبل المسيح الى ايام سرجون الاشوري سنة ٧٢٥ وذلك لأنها كانت كل تلك المدة لا يسابقها مسابق في التجارة والاقدام على الغربة وقطع البحار . وكانت صناعتها حينئذ بالغة اعظم مبلغ من الاحكام والانتقان فلما جاء سرجون حاصرها سنيناً ومع كل قوته لم يقوَ عليها . فصالحها على الجزية لكن ما زالت التجارة في يدها يرد اليها بها من فائض الغنى اضاعاف ما كان ينز منها جزيةً للاشوريين فامكنها ذلك من ان تصانع دولتهم العظيمة وتحفظ استقلالها منهم ان يذهبوا به على حين سقطت اغلب ممالك سوريا وصارت ولايات اشورية . ثم جاء نبوخذ نصر الكلداني فحاصرها ثلاث عشرة سنة وافتتحها اخيراً عنوة فقتل ونهب واسر ما شاء . لكن لما كانت التجارة لا تزال بيدها عاد اليها الغنى فعاد اليها ما كان لها من العظمة الى ان جاء الاسكندر المكدوني ولاسباب حاصرها هذا الرجل واستفتحها بعد ثمانية اشهر فنكل في اهلها تنكيلاً لم ير منه مثله . ولو اكتفى الاسكندر بما فعله بها من القتل والنهب والاستعباد لكان عليها الامر مع فظاعته لكنه بنى مدينة الاسكندرية قصداً لتزاحم صور في التجارة فكان ذلك اشد عليها بمرات مما نكبتها به هذا المكدوني الظافر لان الاسكندرية فاستمها بعد ذلك التجارة وذهبت بقسم عظيم منها . فمن ثم لم ترجع صور الى عزها بعد فتح الاسكندر

كما رجعت اليه بعد فتح نبوخذ نصر . لكن لما لم يكن في استطاعة الاسكندرية ان تحول كل موارد التجارة عن سواحل سوريا بقيت صور وغيرها من مدن الساحل بمكان من العظمة والاهمية كل ايام خلفاء الاسكندر وايام الرومانيين وايام الخلفاء من بعدهم في دمشق وبغداد الى ايام غزوات الصليبيين . كل ذلك لان مقتضى احوال العمران لتلك الازمنة وعلاقات الممالك والشعوب بعضها ببعض كانت تقضي ببقاء المدن السورية صور وغيرها محطاً لقسم كبير من تجارة الممهور .
حينئذ . لكن الغزوات الصليبية غيرت من علائق الامم فنشأ في اثنائها على شواطئ ايطاليا مدن تجارية قضت الاحوال الواقعة ان تنقوى تلك المدن شيئاً فشيئاً وتعظم تجارتها فلم تنقص تلك الغزوات الا وهذه المدن من اهم مراكز التجارة بين غربي اوروبا وغربي اسيا وابتزت من المدن السورية معظم ما ابتته لها الايام بعد بناء الاسكندرية من موارد التجارة . فخربت مدينة صور العظيمة وقارب غيرها الحراب وانحطت سوريا اجمالاً الى حالة لم تعرفها من قبل . ولو وقفت الحال عند الحد الذي اشرنا اليه من قيام المدن الايطالية التجارية لكان الامر على سوريا كما هان عليها قيام الاسكندرية من قبل لكن البرتغاليين اهتموا الى طريق راس الرجاء الصالح فجعلوه طريقاً جديداً للتجارة بين اوروبا والشرق ثم لم يلبث ان اكتشفت اميركا ايضاً فتحولت وجهة التجارة راساً بين اوروبا وآسيا اليها وقامت المدن التجارية في اسبانيا وفرنسا وهولانده وانكلترا فكان ذلك الضربة القاضية على جميع مدن سوريا . لكن مع ذلك بقيت بعض القوافل تتردد في التارات بين سوريا والعراق فبقي بسبب ذلك في البلاد دماء من الحياة التجارية . فلما انفتحت ترعة السويس ذهبت بقية تلك الحياة

وليس اللوم على السوريين في شيء مما صاروا اليه من التراجع لانهم لا يستطيعون ان يعارضوا مجرى الايام ولا ان يغيروا من طبائع العمران والامر لله يفعل ما يشاء . فهذا كان ايها السادة سبب عظمة سوريا وهذا كان ايضاً سبب انحطاطها لا ما قد يقال من الاسباب فانها جميعها ثانوية ما عدا الاسباب التي ذكرناها فان المتأمل لا يرى بداً من التسليم بها

﴿ السؤال الرابع ﴾

بقي على السؤال الاخير وساخص في جوابه ما استطعت وهو بماذا ترجع سوريا الى عزها القديم . ايها السادة . ينتظر من كان في صناعة مثل صناعتي وفي موقف كوقفي ان يسند اسباب عظمة سوريا في المستقبل الى العلم وانا لا انكر دخل العلم ولا اهميته في تقدم البلاد

على العموم لكن ما هذا قصدت لانه سبب عام تشترك فيه كل بلدان المسكونة على السواء . وهو اوضح من ان يحتاج الى تخصيصه بالذكر انما قصدت سببين عظيمين (اولهما) البيت العثماني الكريم (والثاني) الزراعة وما يلحق بها من تربية الحيوان والنبات وتسهيل جميع وسائل النقل والمواصلات . ولما كان هذان السببان من الاهمية بمكان رايت ان استعطفكم بوضع دقائق بعدد ولو شق ذلك على حنكم والكريم من صبر . ايها السادة . ان البيت العثماني وجد سوريا بل كل البلاد من البحر المتوسط غرباً الى اطراف ما بين النهرين شرقاً ومن البحر الاسود شمالاً الى البحر الهندي جنوباً في حالة ما بعدها حالة من التفرق وانقسام الكلمة . ووجدها ايضاً تكاد تكون خلواً من الصناعة ومن اهل الصناعة ايضاً فضلاً عن انخراطها في الزراعة الى آخر ما يمكن لبلاد كبلاد ما بين النهرين ان تنشط اليه . وفوق كل ذلك وجدها وقد تحول عنها طريق التجارة فبلغت من جراء ذلك الى اقصى درجات الفقر والخلو بما جعل المهم نتراجع والنفوس تتصاغر والايدي تنكش حتى عن الجدفي تحصيل اسباب المعاش . فجعل هذا البيت الكريم من همهم اولاً ان يجمع شتاتها . وبضمها جميعاً تحت راية واحدة ولسلاطينه العظام من السعي المشكور في هذا السبيل ما يخلد لهم الذكر مدى الدهر . لكن قضى الله ان يكون اكبر الفخر لواسطة عقد هذا البيت الكريم جلالة مولانا عبد الحميد خان فانه اخرج الى حيز الوجود ما كانت اباؤه العظام تحوم حوله ولا تقع عليه اعني توحيد الكلمة وجعل هذه البلاد الواسعة الخصبية الطيبة الماء والهواء بمملكة واحدة عثمانية وشعباً واحداً عثمانيّاً . فلنسنا بعدد كما كنا في ايام الرومانيين مثلاً شعباً بآوممالك متفرقة تحت راية واحدة فاهرة بل نحن اليوم شعب واحد ومملكة واحدة عثمانية شمالها السلام من افصاها الى افصاها . هذا هو الركن الاول وهذا هو الركن الاساسي لذي وضعه جلالة عبد الحميد لتبني عليه عظمة بلادنا في المستقبل . ولا يسعني لونت ان ابين ما لجلالة مولانا السلطان من الفضل الباهر في وضع هذا الاساس العظيم المبتين على ان التفاتة واحدة الى الخارطة تغني عن الكثير من الشرح والايضاح فلنتقدم الان الى السبب الثاني وهو الزراعة وتوابعها فاقول

✽ الزراعة دون سواها ✽

انتم تعلمون ايها السادة ان اركان التقدم الطبيعية الحقيقية بعد الركن الذي ذكرناه انما هي التجارة والصناعة والزراعة وقد رأينا ان على هذه الاركان الثلاثة واخصها الاول قامت عظمة سوريا في الماضي ولا شك ان عليها ايضاً تقوم عظمتها المستقبلية . لا طريق ولا

واسطة غير ما ذكر. اما العلم ففائدته واهميته انما هي في ترقية هذه الاركان الثلاثة . وعليه فيهمنا ان نعرف باي هذه الاركان نبتدى اليوم والى ايها ينبغي ان توجه رجال البلاد ومن يتوقف عليهم تقدم البلاد المهمة والاعناء خاصة . الى التجارة ؟ ولعلون ماذا يراد بالتجارة كلا ذلك زمن قد مضى الان ولا سبيل اليه في الوقت الحاضر . اقتستطيعون ان تقلبوا هيئة العمران الحاضر . اتستطيعون ان تمحووا من الوجود اميركا الشمالية والجنوبية وافريقيا واستراليا وبقية جزر المحيط ؟ اتستطيعون ان تحفوا عن اعين اهالي اوروبا طريق راس الرجاء الصالح وتردمون ترعة السويس ؟ ان استطعتم كل ذلك فابدءوا بالتجارة وجهوا اليها عنايتكم الخاصة . بماذا تبدؤن اذن ؟ لعلكم تقولون نبدا بالصناعة لكن اي صناعة تعنون اصناعتم ام الصناعة الاوروبية القائمة بها تجارهم ؟ لا شك انكم تعنون الصناعة الاوروبية لكن فاتكم ان الصناعة الاوروبية تحتاج الى مثل التجارة الاورورية للقوم بها والا فستقط لا محالة . وقد راينا قبيل الان ان ابواب هذه التجارة موصدة في وجوهنا ومن المحال علينا فتحها الان فدعونا اذن من التعللات والتشبهات والاحلام التي لا تجدنا نفعاً وتعالوا بنا الى الحقيقة الراهنة . تعالوا بنا الى الزراعة فليس سواها من وسائل النجاح امامنا الان . ولا تحملوا بالشركات التجارية والصناعية وتبنون عليها عظمتكم ونجاحكم في المستقبل فان جميع هذه اضغاث احلام تعلمون بطلانها ولو بعد حين . اذا اردتم الحقيقة فوجهوا عنايتكم الخاصة الى الزراعة . واعقدوا الشركات لها خاصة دون سواها . اعقدوا شركات لشراء الاراضي واستثمارها . اعقدوا شركات للغرس وتربية الحيوان . اعقدوا شركات لانشاء الطرق بجميع انواعها تسهيلاً لاسباب المواصلات . لكن قبل كل ذلك تعلموا كما يتعلق بما تعقدون لاجله الشركات فلا تقدموا عليه من غير علم ولا سابق اخبار فان ذلك يقضي بالخيبة والفشل .

فياشبان البلاد المتعلمين والمتهذبين وبا اصحاب المهمة والعزيمة الراغبين في ان يبنوا لهم ولبلادهم مستقبلاً مجيداً وجهوا خواطركم الى استثمار اراضي بلادكم الواسعة الخصبة فانكم لستم افضل من ابناء الانكليز ولا تجاركم كتجارهم ولا صناعتم كصناعتهم ومع ذلك فان مئات من نخبة شبانهم وابناء الاغنياء والمتوسطين منهم يدرسون سنوياً في المدارس الزراعية فيتعلمون كيف يلمحون وبزروعون وكيف يربون الحيوان ويفرسون الاشجار المثمرة والمغروسات النافعة ويتعلمون كيف يصلحون الالات الزراعية وكيف يخططون الطرق العادية والحديدية ثم يرحلون في طلب الاستعمار الى اراض ناكل اهلها الى افريقيا واستراليا وجزائر المحيط . فتعلموا مثلهم وانتم في غنى عن شبه مهاجرتهم الشاقة لان بلادكم

جنة الله في ارضه ومن الجهل ان تتركوا استغلالها الى التعلل بالامال الفارغة والصناعات الخاسرة والاستخدامات الكاسدة فضلاً عن ان هذه الصناعات وتلك الاستخدامات سيسد بابها عما قليل فتعنون انفسكم باطلاً وتقتلون اوقاتكم بالتشبيات والتشكيات . انا اعلم ان كلامي لا يصادف الان اذانا سامعة لكن غاية ما في وسعي ان انبه الى الخير ولا تكلف نفس الا وسعها

خريستوفوروس جباره

لبعض الناس القصيري النظر والقاصري الحكم خصلةٌ مستهجنة وهي انهم ينظرون في كل شؤنهم الى من يقول القول لا الى القول نفسه . فاذا راموا الحكم على رأي من الآراء لزمهم ان يسالوا عمن رآه ومن قاله فاذا كانت القائل يظهر كبيراً في مخيلتهم «الذباية» اعظموا القول وقائله واذا كان يظهر غير كبير صفروا القول وقائله . فشانهم في ذلك شان من لا باصرة له تحكم ونعقل وانما يبني حكمه على حكم سواه وهذا الداء كثير الانتشار في الصحف العربية الشرقية وذلك من سوء حظ الادب العربي والنهضة الادبية الشرقية لانه بمثابة عثرة في طريقها . ولكن لهذا الداء دواء وهو رجوع كل كاتب الى نفسه والى عقله في الحكم على الاشياء والاشخاص التي تمر تحت نظره ووضعها في الموضع الذي تجعلها فيه باصرته دون محاباة ولا مراعاة عملاً بناموس الانصاف وان كان في ذلك ما ينافي هواه او مصلحته .

ومن اجل هذا نرى واجباً ان نقطع في هذا الفصل جبل السكوت عن رجل توفي في الشهر الماضي وأكثر القراء يعرفونه او سمعوا باسمه . وهذا الرجل هو المرحوم خريستوفوروس جباره الذي اخذ على نفسه في حياته مسألة توحيد الاديان اليهودية والمسيحية والاسلامية او اظهار «الوفاق بين التوراة والانجيل والقرآن» كما كان يقول . فانه لا يحسن ان ينتقل من هذا العالم رجل اقدم على عمل هائل كذلك العمل دون ان يودع بفصل يظهر للقراء حقيقة ذلك الرجل الذي كان يحسب انه يعمل عملاً عظيماً لم يسبقه اليه احد من المتقدمين والمتأخرين

وكان بدء معرفتنا به ارساله الينا في عام ١٨٩٩ مؤلفاته مشفوعة بكتاب طويل قال فيه « بما انكم تحبون وتخدمون الامة باحسن ما تستطيعون وضم قلوب الامة المنفرقة في الله

واحد ارواح عقائدها هو على اعتقادي من اقوى وانتفع واثبت واعم الخدم للشعوب
العثمانية وللدولة فاقدم اليكم آخر مؤلفاتي في هذا الباب راجياً مطالعتها « وقد تصفحنا هذه
المؤلفات وهي تزيد على الخمسة والسنة فراينا انه قد صرف جهده فيها الى اقامة البرهان على
خطأ المسيحيين والمسلمين واليهود في ما يعتقدونه في هذا الزمان . خطأ المسيحيين لانهم
يعتقدون بلاهوت المسيح والمسلمين لانهم لا يعتقدون بصحة الانجيل واليهود لانهم ينكرون
مسيح المسيح . وحاول ان يثبت من كتب هذه الطوائف الثلاث ان ادباؤهم وكتبهم متفقة لا
خلاف فيها البتة فلا موجب لهذا العدوان بين بعضهم البعض

وقد قدم من العاصمة الى النغر بعد ارساله مؤلفاته الينا ببضعة اسابيع فزارنا للمرة الاولى
فوجدناه ربعة الجسم عريض العضلات قصير القامة بلحية طويلة يحاطها الشيب ووجد دموي
فوقه طربوش وتحته ففطان اسود بسيط . فتاملنا في وجه هذا الرجل الذي كان يضع نفسه
فوق الامم المعاصرة ليعلمها ما كان يسميه الدين الحقيقي فلم نجد في عينيه تلك القوة التي
تكون في عيون قادة الامم ولا في نفسه تلك الحماسة التي تسري من الانبياء الى شعوبهم كما
تسري الكهربائية من جسم الى جسم فتكهر به . بل راينا امامنا نظراً جامداً لا يدل على
نباهة ولا خمول وجسماً فيه المادة اقوى من الروح . غير اننا وجدنا في مقابلة ذلك لساناً
طليقاً لا يكل ولا يمل كأنه مركب فوق لولب

فاخذ خريستوفوروس يحكي لنا تاريخه . فقال انه كان من قبل ارشعندريتا في
« انطوش » ارثوذكسي في روسيا فسعى سعياً حثيثاً لتعمير هذا الانطوش وبناء كنيسة
هناك فتمكن من ذلك وصار محترماً محبوباً . فخطر له في ذات يوم ان يكتب الى بعض
اخوانه من رجال الدين في سوريا ان يسعوا لجعل البطريرك اليوناني في دمشق من ابناء
العرب السوريين . فوقع هذا الكتاب في يد البطريرك اليوناني فعزله من رئاسة الانطوش
واستقدمه الى دمشق . وكان خريستوفوروس قد اتفق على الانطوش نفقات طائلة بعضها
من ماله وبعضها مما جمعه من المحسنين فلما قدم الى دمشق الشام طالب غبطة البطريرك بالدين
الذي له على الانطوش فلم يعرفه له بل ابقاه في دار البطريركية ذليلاً مهملاً . قال
فانقطع اذ ذاك الى التامل في الاديان الحاضرة ومطالعة القرآن والانجيل والتوراة .
وكن في اثناء حياتي الماضية اشعر بقلتي واضطراب في ضميري . وما زلت على هذه
المطالعة حتى وقفت على الحقيقة وظهر لي السر العظيم فشرعت حينئذ بان ناراً
تضطرم في نفسي وبان صدري محباً للحقيقة العظمى التي اكتشفتها والتي كنت اخشى ان

اموت ولا ادعو الناس اليها . فسافرت الى اميركا وعرضت مبداءي في مؤتمر الاديان فاجمع الاعضاء على استحضانه . . . ثم جئت الى مصر وانشأت جريدة واخذت ادعو فيها الى الحق والفت كتباً ايضاً .

فقلنا له وماذا كان رأي الناس فيك . فضحك وقال كان رأيهم فيّ كما كان رأيهم في كل من يقوم ويدعوم الى امر جديد . ولكن مساكين هؤلاء الناس فانهم كلهم في ضلال مبين . . .

فشرحنا لخريستوفوروس حينئذٍ خشونة المركب الذي ركبه ونحن نظن ان المنطق يجد سبيلاً الى عقله . فقلنا له ان الاديان كلها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقضي بحب القريب واتباع الفضائل ونبذ الانانية فهل رايت كثيرين من تباعها يعملون بذلك ويتبعونه . فالده ذاك ليس في الكتب ولا الاديان وانما الداء في نفوس الناس . ولا سبيل الى تغيير هذه النفوس لتعامل بعضها بعضاً كبشر لا كحيوانات الا متى انقشعت غيوم الجهل عنها وارثقت واستنارت . وهذا الامر لا يتم باقامة البرهان على خطاء اصحاب الاديان ولكن باطلاع الناس على نوااميس الطبيعة واسرار الكون ومبادئ الحياة واصول الاداب والفضائل فان هذه المبادئ متى دخلت نفس الانسان جعلتها قوية على الاوهام هادئة لدى كل معارك الحياة ونبتت منها كل ما يحول دون الالفة بين البشر . فانشاء محكمة الله في الارض عمل علي ادبي اكثر مما هو لاهوتي . وذلك العمل بطيء المحصول ولا يتم الا بالتدريج الذي هو قاعدة من قواعد العلم والطبيعة . ثم انك هل رايت المسيحيين متفقين فيما بينهم لتجوز لك الدعوة الى اتفاق الامم الاسلامية والمسيحية واليهودية معاً .

فاجاب ان البشر من ام واحدة وجيلة واحدة فحرام عليهم ان يبقوا مبغضين بعضهم بعضاً . فقلنا له انك اجبت عن الاعتراض الاخير ولم تجب عن الاعتراض الاول . فقال ان الاعتراض الاول بحث علمي ونحن لا نبحث الآن في العلم

فعلمنا حينئذ ان العقل الذي كان امامنا عقل منصرف الى المجادلات الدينية العقيمة لا يفهم القاعدة العلمية ولا يعرف تأثيرها ولا يدرك انه لا يمكن حدوث شيء في هذا العالم بدونها . وتحققنا حينئذ ان المرحوم خريستوفوروس يسير على غير هدى ولا نظام في جميع اقواله واعماله كان الموازنة غير مستوية في نفسه رحمه الله

ثم غاب عنا خريستوفوروس بضعة اسابيع وعاد الينا فسالناه اين كنت في هذه المدة قال سافرت الى دمشق الشام لتهيئة غبطة البطريرك الانطاكي العربي بمجلوسه سيفي كرمي

البطيركية لانني كنت في مقدمة الداعين الى اخراج هذا الكرسي من ايدي اليونان الى ايدي العرب . فنجبنا لهذه السفرة بعد ما كنا قد سمعناه من فمه من التحامل الخفيف على بعض رجال الاكلبروس وسالناه ماذا حدث لك في دمشق وكيف استقبلت فيها . فقص علينا قصة طويلة خلاصتها ان بعضهم زين له الرجوع الى كنيسته فظهر لهم الطاعة والرضوخ لان السلطة التي كان يقاومها قد زالت وله حقوق قديمة في انطوش روسيا يروم المطالبة بها . ولكن وقع الاختلاف بينه وبينهم على امر التوبة . فانهم كانوا يطلبون منه بناء على القانون كتاباً يظهر فيه توبته ونبذه لكل الاقوال التي قالها والكتابات التي كتبها ورجوعه الى الحظيرة برضائه واختياره وبعد ذلك يسمحون له بالاقامة في احد الاديرة ويمسنون معاملته ويعوضون خسارته . وهو كان يقول لهم انه لا يستطيع مخالفة اعتقاده ونبذ المذهب الذي دعا اليه وانما يرضى بالاقامة في دير والخلوة فيه الى نفسه وضميره ليرى اذا كان الله يغير ما بنفسه او يبقيه على اعتقاده

فلما قال هذا القول حدقنا جيداً في عينيه لنقرأ فيها جواباً لسؤال قام حينئذ في نفسنا . وهو هذا : اخلص هذا الرجل في كلامه ؟ احقيقي انه يوجد الآن تحت سماء الشرق رجل يعرضون عليه رئاسة ومكافأة ليغير فكره ولا يغيره ؟ وقد قام في نفسنا هذا السؤال (وليس في قيامه شرف للمبادئ الادبية في الشرق) لما هو مشهود من « رخص » الافكار عندنا واسفاه وسرعة تغيرها في نفس كل ذي فكر طبقاً لمصلحته وهواه

على ان الامر الذي استنتجناه من هذه الحادثة الثانية مع المرحوم خريستوفوروس هو الاسف من ان الرجل لم يرجع من مقام البطيركية راضياً راضحاً . وقد قلنا غير مرة في نفسنا انه لو تم ذلك لكانت لنبطة البطيريك العربي فضل عظيم في اصلاح ما افسده البطيريك اليوناني لاننا نعتقد ان التبعة في شدوذ خريستوفوروس واقع نصفها ان لم يكن كلها على السلطة الدينية التي اخرجته في بدء امره فاخرجته عن دائرة العقل والنقل . ولا عبرة بانه كان ذا استعداد لذلك فان مسبب الشر كفاعله . وقد قيل الويل لمن تأتى العثرات على يده

ولكن يظهر ان هذا الشر الذي جاء على يد بطيريك يوناني لم يكتب اصلاحه الا لبطيريك يوناني . ونعني به غبطة الخبر الجليل السيد فوتيوس بطيريك كرسي الاسكندرية فان غبطته حين وفاة المرحوم خريستوفوروس في العاصمة في الشهر الماضي لم يتردد في قبوله في دائرة سلطته واعنباره كرجل من ابناء رعيته وهذا مما دل على حكمة غبطته

آثار من قبل الطوفان

هل كان الطوفان عاماً على وجه الارض . مسألة اختلف فيها العلماء وان اتفق عليها اللاهوتيون . ولهم في انكار ذلك التعميم ادلة علمية وتاريخية واثربولوجية لا محل لذكرها في هذا المقام . بل ان بعضاً منهم يذهبون الى انكار الطوفان نفسه ويعتبرونه من جملة الافاصيص والاساطير الخرافية القديمة . قال احد هؤلاء المنكرين . ان الارض اقدم مما يظنه القائلون بالطوفان والعمران فيها قديم العهد جداً ايضاً وهو ادوار ينلو بعضها بعضاً على وجه غير متصل . وقد كانت اسطورة الطوفان بعد واحد من تلك الادوار . فانه كان في العالم قبل تمدن الاشوريين والكلدانيين والمصريين والصينيين والرومان واليونان تمدن عظيم لا يعرف التاريخ شيئاً عنه وعن اهلِه . وقد بلغ الناس في عهده فوق ما بلغوه في هذا الزمان من الحضارة والخلاعة والزحام على الحياة والتناق وحب صلاح الحال . وكانوا كلما ازدادوا انبعاثاً في هذه الشؤون ازدادت اخلاقهم بعداً عن الصلاح وقرباً من الفساد . ثم دالت دولة ذلك التمدن فانقرض وزال فقال مؤرخوه ان الله اهلك اولئك البشر بطوفان عظيم عقاباً لهم على فسادهم وشروهم

ومن اجل هذا تجمد كثيرين من العلماء الماديين الذين لا يتقنون بتقدم العالم واستمرار الارنقاء البشري يتساءلون هل 'قضي على البشر بما قضي على طائفة النمل . فان هذه الحيوانات الصغيرة تصل في حياتها الى درجة من (التمدن) محدودة فتنبلقتها وقفت عندها ولم تتجاوزها . فهل ان الخالق سبحانه وتعالى وضع حداً لتمدن الانسان كما وضع حداً (لتمدن) الحيوان

على اننا اذا كنا لا نعرف شيئاً عن تمدن البشر واخلاقهم قبل العصر الطوفاني فاننا نعرف شيئاً كثيراً عن الحيوانات التي كانت رفيقة للانسان في ذلك الزمان . وانما نعرف ذلك من بقاياها في جوف الارض وهذه البقايا لا يزال العلماء يكتشفونها الى هذه الايام وآخراً ما عثروا عليه منها وجدوه في ارض واسعة في « ييكربي » على مسافة عشرين كيلومتراً من آثينا . وقد حملت احدى السفن الانكليزية من ثغر بيره اليوناني في اواخر الشهر الماضي اربعين صندوقاً مملوءة ببقايا الحيوانات التي عاشت قبل الطوفان لوضعها في المتحف الانكليزي في لندن

وقبل الكلام على ارض بيكرى التي تستخرج تلك البقايا الحيوانية القديمة منها نشير الى كيفية ترتيب البقايا في الارض . فنقول ان في جوف الارض خمس طبقات مختلفة وكل طبقة منها تدل على ان حادثاً طبيعياً عظيماً قد حدث على سطح الارض فغطاها بشيء لم يكن لها ودفن تحت هذا الشيء الحيوانات التي كانت على وجهها . ومن الغريب ان النابشين لا يجدون تحت القشرة الاولى او الطبقة الاولى الا حيوانات صغيرة غير تامة الخلقة فكأن الارض كانت يومئذ في بدء نشأتها . ولكن قد يكون في هذه القشرة اشجار محجرة هائلة الحجم . واما الطبقة الثانية ففيها كثير من انواع الاسماك والزحافات الكبيرة ولكن لا اثر فيها لذوات الثدي . واما الطبقة الثالثة ففيها ذوات الثدي كالفيل العظيم ووحيد القرن وغيرهما من الحيوانات المجترة والقارضة والطيور . واما الطبقة الرابعة ففيها الحيوانات العائشة في هذا العصر . وقد تمكن العالم كوفيه من ترتيب هذه الحيوانات بحسب نشأتها وقدميتها

اما ارض بيكرى التي تقدم ذكرها فقد كانت من قبل لدير يوناني على سفح جبل بانتليكوس في طريق ماراتون . واصل اكتشاف تلك الآثار الحيوانية فيها ان جندياً بافارياً كان يصطاد في تلك الارض في عام ١٨٣٨ فوجد فيها حفرة فيها كثير من بقايا الحيوان فحملهما الى أثينا وعرضها على علمائها فتمتققوا انها من الحيوانات القديمة . فجاء بعده الاستاذ روس من اسانذة كلية مونيخ وحفر في تلك الارض فوجد فيها كثيراً من الحيوانات التي عاشت قبل الطوفان فعاد بهذه الغنيمة الى متحف مونيخ . فثار حينئذ ثائر علماء اوروبا واقبلوا على الحفر في تلك الارض . فوجد فيها الميسوكودري الترانسوي في عام ١٨٦١ كثيراً من البقايا الحيوانية منها حيوان مما « فارة بيكرى » وفرس من الافراس التي كانت تعيش قبل الطوفان وهو يختلف عن افراس اليوم من حيث شكل حافره . وفي عام ١٨٨٢ حفر فيها الاستاذ درز الالماني وفي عام ١٨٨٥ حفر فيها الاستاذ نوماير النمساوي . وفي الاعوام الاخيرة حفر فيها المستر ارتورو ود ناظر المتحف الانكليزي في لندن فوجد من البقايا الحيوانية ما ملأ به الاربعين صندوقاً التي تقدم ذكرها وفي جملتها كثير من رؤوس الخنازير الوحشية التي كانت تعيش قبل الطوفان واسنانها لا تزال مركبة في افكها واسنان الفيلة العظيمة التي كانت تعيش في ذلك العصر البعيد وفي جملتها سنٌّ طولها متر واحد وهو اطول سن معروف للفيل الى هذه الايام . وقد كان اكتشاف النابش الانكليزي اهم من جميع الاكتشافات التي تقدمته

على ان الحفر في هذه الارض لم يتقطع الى اليوم . فان عالمًا ايطاليًا يطلب الآن من صاحبها المسيو سكوتس الذي كان وزيرًا للشؤون الخارجية اليونانية في وزارة المسيو دلياني ان يسمح له بالحفر والحكومة الايطالية تعضده . ولا ريب ان المسيو سكوتس يجيبه الى ذلك كما اجاب الذين تقدموه

وقد استدل الباحثون من هذه الآثار على امر ذي بال . فانهم تحققوا ان البقايا الحيوانية المذكورة لا تشبه البقايا الحيوانية التي وجدت في ارض اوربا ولكنها تشبه كل الشبه البقايا التي وجدت في جزائر اليونان وفي ارض آسيا . ولذلك قالوا ان ارض اليونان كانت في الزمان القديم متصلة بآسيا ومنفصلة بالبحر عن اوربا خلافاً لما هي فيه في هذه الايام من انفصالها بالبحر عن آسيا واتصالها باوربا

طريقة صيد الثعلب

للصيد شأن عظيم عند الناس فبعضهم يتخذ للارتزاق والتجارة وبعضهم للهو والتسلية . وهو انواع بعضها بالرصاص وبعضه بالكلاب . والحيوانات المصيدة انواع ايضا اهمها شاة الجبل والخنزير والارنب والثعلب والذئب والاسد والفيل والطيور بعضها للارتفاع بلحمها وبعضها للارتفاع بريشها وجلودها . ومن النوع الثاني صيد الثعلب الذي كان له في انكترا والقطار المصري في الشهر الماضي طنين ورنين بناء على ما قام من الخلاف بين بعض من ضباط الجيش الانكليزي في العاصمة وخبراء منزل المستر بلنت الايرلندي في المطربة . فان بضعة من الضباط خرجوا في ذات يوم لاصيد الثعلب ومعهم كلاب استقدموها من انكترا لهذا الغرض فلما وصلت الكلاب الى حديقة المستر بلنت في المطربة دخلت الحديقة لتطاردها ثعلبا شاهدته فيها فلحقها الضباط . فخرج اليهم حينئذ خبراء الحديقة وحدث بين الفريقين نزاع شديد ادى الى ضرب واهانة . فحكم الخبراء وحكم عليهم بالسجن فاكبر المستر بلنت صرامة الحكم وكتب الى الجرائد الانكليزية بذلك وسأل اصداؤه في مجالس العموم الانكليزي الوزارة عما صنعه الضباط من دخولهم الى حديقته للصيد فيها . ولم تكن كل تلك الجلبة والضوضاء الا من اجل ثعلب

ولاصيد الثعلب شأن عظيم في انكترا وهو من اشهر ضروب الصيد هناك ويقصدون

بصيده امرين الاول ترويض الكلاب على الجراءة والعدو السريع والثاني الانتفاع بمجد هذا الحيوان . واما طريقة صيده فهذا بيانها .

يعدون لهذا الصيد كلاباً سريعة فادرة على اللحاق بالثعلب وخير الكلاب لذلك الكلاب الانكليزية . ومن مزايا هذه الكلاب انها تشم رائحة الثعلب من بعيد جداً فتحوم حوله قبل ان تراه حتى تكتشف مكانه . وذلك لان للثعلب رائحة مخصوصة به تعرفها تلك الكلاب . اما الثعلب فمضى رأى الكلاب اطلق ساقيه للريح فتجد الكلاب في طلبه لكنها نبال خرجت من القوس لشدة سرعتها وارتياحها الى الركض في الطريق التي يركض الثعلب فيها . ولكن الثعلب لا يلبث بعد مدة ان يرى الكلاب قد صارت قريبة منه فيقال انه يتخلص منها حينئذ باسلوب بسيط جداً وهو ان يقف ويقضي حاجته فما يخرج البراز من جوفه وتنشر رائحته حتى تعود الكلاب عنه تخبط رائحته وكراهة الكلاب اياها اشد كراهة . ولكن الويل له اذا وقف ولم يستطع قضاء حاجته فانه يؤخذ حينئذ غنيمة باردة . وحياناً يستطيع الفرار بعد هذا الوقوف والالتجاء الى وكرة فيدخل فيه ويبرز راسه مدافعاً به اشد دفاع فلا يكون للكلاب سبيل اليه . وحياناً يرمي بنفسه في الماء ويخرج راسه على شاطئ النهر مدافعاً به فتعجز الكلاب عن اخذه حتى يدركه التعب والعياء . ولكن اذا ادركته الكلاب قبل ذلك فانها تحيط به من كل جانب وتهجم عليه فتخذه فياخذه الصياد حينئذ ويعلقه في غصن احدى الاشجار فتحوم تحته الكلاب التي صادته ناجمة واثبة اليه حتى تصل اليها الكلاب التي تاخرت عنها فان رؤية الطريدة جثة جامدة امامها مما يجعلها جريئة قوية في صيد ثان . على ان الصياد لا يدع الثعلب معلقاً امام الكلاب وقتاً طويلاً لئلا تالف رائحته كثيراً فلا تعود شديدة الشعور بها عند الصيد . وللصياد كلمة متى صاح بها في اثناء الصيد وثبت الكلاب وثباً شديداً الى المكان الذي يشير اليه الصياد باصبعه لانها علامة على وجود الثعلب . وهذه الكلمة هي « تايت . تايت » فكان « تايت » في قاموس الكلاب كلمة مرادفة للثعلب

عرابي باشا ومنفاه

آراء الناس في عرابي • خلاصة ترجمته • تاريخ جزيرة
سيلان منفاه

* آراء الناس في عرابي * لعرابي باشا المنفي في جزيرة سيلان والذي سيعود في هذا الشهر الى القطر المصري صورتان اديتان متباينتان واحدة يرسمها اصدقاؤه وواحدة يرسمها اعداؤه

اما الصورة الاولى التي يرسمها اصدقاؤه فهذه خطوطها الكبرى — كان الفلاح المصري قبل قيام عرابي باشا في اسوأ حال والوظائف الكبرى كلها في ايدي الغرباء والرشوة القاعدة الاولى في الاحكام وكان جميع المصريين يحنون رؤوسهم تحت نبر ذلك الحكم الجائر والاستبداد الذي لا مثيل له ولم يجسر احد منهم على رفع رأسه ومطالبة الهيئة الحاكمة بحقوق الهيئة المحكومة غير عرابي • فعرابي اذا بطل من الابطال ككروموويل صاحب الاصلاح الانكليزي ولافايت صاحب الاصلاح الفرنسي وكوشوت صاحب الاصلاح النمساوي وواشنطن صاحب الاصلاح الاميركي • وقد كان قيامه حداً فاصلاً بين عالم الاستبداد الماضي وعالم العدل التالي

وهؤلاء الاصدقاؤ الذين يرسمون لعرابي هذه الصورة أكثرهم من رجال الانكليز وفي مقدمتهم محاميه الذي دافع عنه يوم محاكمته • واما الصورة الثانية التي يرسمها خصوم عرابي فهذه خطوطها الكبرى

يقولون • ان عرابي رجل جاهل حסود طماع • اما جهله فلانه حسب انه يكفي ان يثور الشعب المصري فينال الاصلاح المطلوب • فكانه نسي مصالح اوروبا في مصر وعلائقها بالباب العالي • واما حسده فلانه رأى الجراكسة في الوظائف الكبرى فرام التعالي عليهم • واما طمعه فلانه كان يتطاول الى العرش الخديوي ليعبد في مصر حادثة محمد علي • وقد ادت سياسته هذه الى ثلاث مزار كبرى • الاولى قتل استقلال بلاده • والثانية لباس الجيش المصري لباس العار وفي وقعة التل الكبير التي فر فيها عرابي فرار الجبان بعد ما كان لهذا الجيش من الابداد العسكرية في بلاد السودان وغيرها • والثالثة اخراج منافع البلاد ومرافقها من ايدي ابنائها الى ايدي الاجانب بازدياد العنصر الاجنبي فيها بعد الاحتلال • فعرابي



﴿ عرابي باشا ﴾

كان إذا آفة لوطنه وخائناً لمليكه . وكان ناظم الايات التالية قد ترجم عن عواطف هذا الفريق لما قال هذه القصيدة الرشيقة التي تنم على ناظمها كما ينم العطر على العطار ومطاعها

صغار في الذهاب وفي الاياب اذا كل شانك يا عرابي
عفا عنك الاباعد والاداني فمن يغفو عن الوطن المصاب
نفس في مصر موفور المعالي رفيع الذكر مقتبل الشباب
افرق بين سيلان ومصر وفي كليهما حمر الثياب

ولكننا نرى ان بين هذين الطرفين وسطاً للعاقل البصير . والتاريخ العادل المنزه عن الهوى اذا رام ترجمة عرابي لم يحسب له سيئة قيامه الى صلب الاصلاح في زمن كانت فيه الحقوق مهضومة والظلم فاشياً فان ذلك نظام طبيعي اذا لم يظهر على يد عرابي ظهر على يد سواء وهو من نتائج الاختلال وسوء الحال . ولكن السيئة الكبرى التي بدونها له تاريخ مصر ويعتبرها خروجاً عن جادة السياسة الصحيحة والنظام الطبيعي الذي لا يتم شيء بدونه هي قيامه على السلطة الخديوية واعتبار الخديوي امير البلاد وصاحبها عدواً له ولما فضلاً عن اثاره الضغائن الجنسية في النفوس اثاره افضت الى مذبحه الاسكندرية المشهورة . فلو كان عرابي اوفر علماً باسرار السياسة الدولية واكثر اطلاعاً على حوادث عصره ومجري

زمانه ولو كانت نفسه مستعدة استعداداً حقيقياً لتكون زعيمة حزب عظيم وفيها ما يجب ان يكون فيها من السلطة لكبح جماح العامة حين جموحها كما كان فيها من المقدرة على اثارها لراى ما كان امامه من الصخور الهائلة . ودنا موضع الخلاف بين عرابي وخصومه فانه ما فتى ينادي من جزيرة سيلان في كتب خدوشية وغير خصوصية انني لم اصنع ما صنعت الا خدمة لوطي واعلاء لشأنه . فبرث عليه اولئك بقولهم ان قيامك على سيد البلاد قياماً اضطر دولة اجنبية للدفاع عن سلطته فد اضاع البلاد ومن فيها فاذا كانت نيتك حسنة فان سياستك كانت من افجح السياسات

✽ خلاصة ترجمته ✽ ولا بد في هذا الفصل من الالمام بشيء من ترجمة عرابي لثمة للنائدة . فنقول انه احمد عرابي الحسيني ولد في عام ١٨٣٩ ولا بلغ السنة الرابعة عشرة دخل المدرسة العسكرية وخرج منها في ايام المرحوم سعيد باشا فانظم في سلك الجيش ولكنه لم يلبث ان طرد منه على ما يقال لسوء سلوكه بعد جلده عقاباً له ولعل ذلك لشدة عناده في شبابه . وبعد ذلك دخل الى الجامع الازهر لطلب العلم وتزوج بجارية لاحد الباشوات ثم عاد الى الانتظام في سلك الجيش في ايام المرحوم اسماعيل باشا وشهد القتال بين مصر والحبشة برتبة فائمهقام دون ان يمتاز بشيء في تلك المعركة . ولما عاد من السودان اخذ يسعى في تاليف جمعيات سرية لمقاومة الجراكسة الذين كانوا اصحاب الكلمة في الجيش فالقي عليه القبض في عام ١٨٨١ ولكن انصاره هجموا على السجن فكسروا ابوابه واطلقوه . فكبر الامر على وكيل انكلترا ورام خنق هذا المبداء قبل استئماله فامتنع وكيل فرنسا من الاشتراك معه في ذلك في بدء الامر ظناً منه ان عرابي ورفاقه تغلصون في دعوتهم ومطالبهم (نقلًا عن المسيو بوردو) وبعد ذلك عظم الامر فوردت على حكومة مصر مذكرة من الدول نقضي بمنعها من انشاء مجلس نيابي فيها كما كان يطلب عرابي فلم يمثل عرابي وكان قد منح رتبة باشا فانتخبه المجلس النيابي المذكور ناظرًا للحرية بالرغم عن طلب انكلترا وفرنسا نفيه من القطر المصري . فعظم نفوذ عرابي يومئذ واخذ يقاوم السلطة الخديوية لانها كانت لا تجاريه على مراده فارسلت الدولة العلية في ٨ يونيو من عام ١٨٨٢ درويش باشا للتحقيق في المشكلة المصرية ثم اشتد الخلاف بين المرحوم توفيق باشا وعرابي فاعلن عرابي انزال الخديوي عن كرسيه فها هو اوربا الامر ثم كانت مذبحة الاسكندرية في ١١ يونيو ف ضرب الاميرال السربوشان سيمور قائد الاسطول الانكليزي الاسكندرية واحتلها تأييداً للسلطة الخديوية فجاء عرابي بمجنوده الى التل الكبير فسارت اليه الجنود الانكليزية فقر من

وجهها عرابي وجنوده من غير حرب ولا قتال وهذا مما اسخط الناشئة المصرية اسخطاً شديداً عليه وجعل احدها وهو الشاعر الذي تقدم ذكره يقول في تلك القصيدة

واذ ضربوا وسيفك لم يجرّد واذ دخلوا ونعلك في الركاب
واذ ملئت لك الدنيا نفاقاً وضافت بالغباوة والتغايي
واذ تُقنى المعالي بالتمني واذ يُغزى الاعادي بالسباب
واذ تُعطى الاريكة في النوادي وتُعطى التاج في هزل الخطاب

وبعد ذلك دخلت الجنود الانكليزية الى القاهرة وعادت السلطنة الى الخديوي توفيق وحوكم عرابي ورفاقه فحكم عليهم بالاعدام فاستبدل الخديوي هذا العقاب بالنفي الى جزيرة سيلان . فشيعة الناس يومئذ في مصر والشام باناشيد عامية كما يستقبلونه الآن بقصائد ومن تلك الاناشيد قولهم

ياديني وانت ديني يازهر البساتين
املي الكاسات واسقني بالسنة مرة
ياديني كتناكوت ياديني كتناكوت
عرابي باشا عما يموت كشحوه برا

وما زال عرابي باشا ورفاقه في جزيرة سيلان حتى صدر العفو عنهم في هذا العام من الجناح الخديوي المعظم مولانا عباس باشا الثاني فاخذوا يعودون الى وطنهم الذي غادروه في حال ويمجدونه في حال

✽ منفاه ✽ اما «سيلان» التي كانت منفى عرابي ورفاقه فهي جزيرة انكليزية في جنوبي الهند عدد سكانها ثلاثة ملايين نفس وربع مليون وعاصمتها مدينة «كولومبو» . ولهذه الجزيرة تمدن قديم تدل عليه الآثار القديمة التي لا تزال فيها . وقد روى العالم الطبيعي الروماني بلين الكبير ان جزيرة «تايروبانه» (كما كانوا يسمون سيلان في تلك الايام) اوفدت اربعة سفراء الى الرومانيين للتقرب من حكومتهم . وقد ساح في سيلان السائح الصيني (فاهيين) في القرن الرابع لليلاد المسيحي وكتب تفاصيل رحلته وفيها من الاعجاب بفخامة بنيان مدينة (انوراداروبا) التي كانت عاصمتها واتساع عمرائها ما يدل على مبلغ حضارتها في ذلك الزمان . ويقال ان هذه المدينة كانت محاطة بصور عظيم يضم بين جدرانها مساحة ٢٥٠ الف ميل وقد تم بناؤه في القرن الاول لليلاد . وآثار هذه المدينة باقية الى اليوم

اما سكان هذه الجزيرة فهم خليط من الفداهيين والسنجاليين . والاولون قبائل متوحشة تعيش في الجبال والاحراش والآخرون متمدنون بعض الشيء . وكان قرصان العرب يشنون الغارة على سيلان قبل عام ١٥٠٥ ويعودون منها بالاسلاب والكنائس فبعد هذا التاريخ نزل البرتغاليون في الجزيرة وحالفوا ملوكها فكانوا اول مستعمرين لها . ثم قلب البرتغاليون ظهر المجن للسكان واستولوا على شواطئ الجزيرة كلها وفي عام ١٦٠٢ جاء الهولنديون واتحدوا مع السكان عليهم فغصبهم الشواطئ وحلوا محلهم . وفي القرن الثامن عشر جاء الانكليز في نوبتهم وحلوا محل الهولنديين فطردوهم عن آخرهم في عام ١٧٩٥ وفي عام ١٨١٥ استقلوا بالجزيرة وخلصوا ملكها الذي كان وطنياً وكان يدعى ملك قنديا نسبة الى احدى مدن الجزيرة

ولسيلان اليوم اهمية تجارية عظيمة لانها طريق جميع السفن التي تسير الى الهند والشرق الاقصى ولذلك ينتظر ان يكون ثغر كولومبو عاصمتها من اعظم ثغور العالم في المستقبل . ويقدر عدد سكان هذه المدينة بمائة وستين الف نفس . وفي الجزيرة غير سكانها الاصليين والنزلاء الاوروبيين كثيرون من المغاربة والجاوايين والصينيين والهنود . وفيها معاوص للتجارة الثمينة

الامم وابنتها

* اخلاق الامبراطورة فردريكة *

لم تكد نحمد جمة الحزن على كبيرة ملكات العالم وملوكه الملكة والامبراطورة فيكتوريا حتى انقذت جمة حزن اخرى على ابنتها الامبراطورة فردريكة والدة الامبراطور غليوم الثاني . وبما اننا اقلنا باب « مشاهير المتقدمين والمتأخرين » في هذا الجزء دون ان نذكر فيه ترجمة سيدة مشهورة كما وعدنا في الجزء الماضي فاننا نعود في هذا الفصل الى ما فاتنا هناك لاطلاع القراء على لمع من اخلاق الامبراطورة فردريكة وما قاسته في حياتها من العناء ولا سيما مع البرنس بسمارك الذي كان خصماً شديداً لها ليعلم الناس ان المصائب والمتاعب لا تقتصر على اكواخ الفقراء بل انها تشمل قصور العظماء

واقعد تزوج البرنس فريدريك غليوم ولي عهد المانيا بالبرنس فردريكة وهي في زهرة الشباب فكان المستقبل باماماً في وجهها . ولكنها ما نزلت في البلاط الالماني حتى علمت بما

سئاسيه فيه من العناء . فان اهل البلاط كانوا ينظرون اليها نظرهم الى شخص غريب عنهم
اذ لم يكن من الفة يومئذ بين الالمان والانكليز . وكان اشد هم وطأة عليها البرنس بسمارك
فانه كان يراقبها اشد مراقبة لانها كانت زوجة ولي العهد ويخشى ان يكون لها تاثير سيء
على زوجها . وكان يسميها « تليدة غلادستون » او « الانكليزية » او « الاجنبية » ويجعل
جرائده تحمل عليها حملات شديدة . ولذلك قالت فردريكة في ذات يوم قولاً يدل على
مبلغ سخطها عليه . فانها كانت يوماً في قصر بوستدام فطلبت ماءً فنهض البرنس
بسمارك بنفسه وجاءها بكأس ماء على طبق . فالتفت فردريكة الى احدي نساءها وقالت
لها : ان هذا الرجل جعلني اذرف دموعاً بقدر ما في هذه الكأس من الماء . وكان ذلك
في عام ١٨٦٧

ثم كانت حرب السبعين فبلغ بسمارك بعدها اوج العز والعظمة فازداد مراقبة للاميرة
فردريكة لاسيما وان زوجها البرنس فردريك غليوم اصيب بداء السرطان في حنجرته .
وقد كتب بوش صديق بسمارك في مذكرته عنه انه قال ما نصه « نحن سيئو البخت في مسألة
الزواج . فانه اذا تزوجت اميرتنا بامراء اوربا وملوكها انخرن الى وطنهم الجديد كل
الانحياز كالاميرة الالمانية التي اقترنت بملك بافاريا واعنقت المذهب الكاثوليكي والاميرة
الثانية التي اقترنت بالقصور واعنقت بالمذهب الارثوذكسي . اما الاميرات الاجنبيات
اللواتي يتزوجن بامرائنا فانهم يبقين على الانحياز الى وطنهم القديم ويفضون مصلحته على
مصلحة المانيا نفسها . مثال ذلك هذه الانكليزية » يعني البرنس فردريكة

وفي اثناء ذلك كانت البرنس منصرفة الى العناية بزوجها المصاب . فكانت تسهر على
فراشه ليلاً ونهاراً بنشاط يدل على حبها له ومعرفتها واجباتها . وكان الامبراطور غليوم
الاول قد شاخ والالمانيون يتوقعون وفاته من عام الى عام ولذلك كان الاهتمام بمرض ولي
العهد البرنس فردريك غليوم عظيماً جداً . وكان على فراشه فريقان من الاطباء فريق
انكليزي وفريق الماني فكان الدكتور الانكليزي يتهم الالماني بالجهل والالماني يتهم
الانكليزي بالمضاربة بالبورصة على حياة وارث الملك . ولما انفقوا على اجراء عملية جراحية لولي
العهد اختلفوا على الانبوبة التي 'تخذ للعملية فالالمان طلبوا ان تكون المانية والانكليز طلبوا
ان تكون انكليزية ورغبة في التوفيق بين الفريقين تقرر جعل الانبوبة اميركية بناء على
طلب الدكتور توماس ايفان الاميركي

اما البرنس بسمارك فانه كان يقول في ذلك الوقت لبوش صديقه « ان مرضه السرطان



ولا نجاة من هذا المرض « فكانه كان مسروراً بذلك ليخلو له الجو في الامبراطورية . واما البرنس فردريك غليوم فانه ما كان يطمع في النجاة ولكنه كان يطمع في الوصول الى العرش ولو يوماً واحداً لمكافاة الاميرة فردريكة زوجته . ففي ٨ مارس من عام ١٨٨٨ ورد الخبر بوفاة الامبراطور غليوم . وكان الامير قد تعافى قليلاً بعد العملية الجراحية . فاجتمعت حاشيته كلها في قاعة القصر وفي جملتها الاميرة فردريكة والامير فردريك زوجها الذي صار امبراطوراً خلفاً لايه . فاخذت الاميرة فردريكة تبكي . وكان بكاءها لسببين الاول حزنها على وفاة الامبراطور غليوم الاول والثاني ذكرها الاهداءات التي لحقت بها من البرنس بسمارك قبل وصولها الى العرش الامبراطوري . وكان الجميع مطرفين في تلك الساعة ينتظرون كلام « الامبراطور الجديد » واذا به قد نهض الى المائدة ووقع بيده على المنشور الامبراطوري المؤذن بارتقائه الى العرش . ثم دنا من فردريكة وفي يده حمائل وسام النسر الاسود فطوق عنقها به بهيئة جدية . فانطرحت فردريكة بين ذراعيه وصارت تبكي . فالتفت حينئذ « فردريك الثالث » الى اطبائه وقال لهم . اشكركم لانكم جمعتموني احيا الى وقت استطيع فيه مكافأتها على اخلاصها وحبها

غير ان « الامبراطور فردريك كان لا يزال مريضاً بدائه . وكان نجله وولي عهده البرنس غليوم (الامبراطور غليوم الحالي) من مردي بسمارك والمعجيين به في ذلك الزمان ففي يوم عيد البرنس بسمارك شرب الامير غليوم نخبه بهذه العبارة « ان الامبراطورية الالمانية تشبه اليوم سفينة ربانها جريج ملقى امام الدفة . ففي وسط حزننا الحاضر يجب ان نوجه انظارنا الى حامل رايتنا وعمدة سياستنا اعني مستشار الامبراطورية العظيم . امد الله في عمره »

فكان البرنس غليوم كان مع البرنس بسمارك على والدته . وليس ذلك بغريب فقد روي عنه انه قال منذ سنوات « من لي بمن يتزعج هذا الدم الانكليزي من عروقي » ولعل ذلك لا يخلو من مبالغة

ومن اقوال البرنس بسمارك في الامبراطورية فردريكة « ان هذه المرأة تعلق افكار زوجها بكثرة كلامها . فانها لا تفتأ تنصحه وتعظه وهو ضعيف عن مقاومتها . ولو لم اكن انا ساهراً على راحته ومسعداً كل حين للدفاع عنه لكان خطبه كبيراً » وقد روى هذا الكلام بوش المذكور آنفاً . ومما رواه ايضاً عن لسان البرنس بسمارك قوله « انني اخشى من سلطة هذه المرأة على رجلها وشدة طاعته لها » قال شارح هذا القول فكان بسمارك كان



* الامبراطورة فردريكة *

ام امبراطور المانيا واخت ملك انكلترا

يكره كل شيء للامبراطورة حتى اتفاقها مع زوجها

ولكن لم ينسَ لهذه الامبراطورة المسكينة ان تنال المنزلة التي كانت تطمح لها في امبراطوريتها والتي كان يحشى بسمارك من وصولها اليها لان زوجها الامبراطور فردريك الثالث توفي بالسرطان بعد انقضاء اربعة عشر اسبوعاً على ملكه فدخلت زوجته الامبراطورة

في زاوية النسيان . ولم تستطع الانتقام من بسمارك الا مرة في حياتها . ذلك انه لما قام النزاع الشديد بين الامبراطور غليوم الحامي والبرنس بسمارك واعيت البرنس الحيل في افناع الامبراطور بالعدول عن سياسته رأى ان يتخذ لذلك آخر حيلة في يده . فقصد الامبراطورة فردريكة وسالها التوسط بينه وبين ابنها . فرفعت راسها بعظمة واجابته — انك قاومتني في حياتي ووضعت من الحواجز بيني وبين ابني ما يجعلني الآن بلا سلطة عليه فاذا كنت عاجزة عن افادتك الآن فالذنب لك لا لي . فانحنى بسمارك وخرج صامتاً . وفي اليوم التالي اعلن استقالته

والظاهر ان داء السرطان الذي قتل زوجها قد سرى اليها ايضاً فماتت به في اوائل الشهر الماضي بعد مرض طويل اختتم حياتها بالعذاب كما مرت بالعذاب . ولذلك تمنى اخوها جلالة الملك والامبراطور ادوار السابع امام اعضاء مؤتمر السل حين مقابلتهم اياه ان يكتشف احد العلماء دواء للسرطان فيجئد اسمه بهذا الاكتشاف

نشر صفحات مطوية

بلاد مصر

﴿ وكيف كان يصفها كتاب العرب ﴾

« ذكرت مصر في القرآن العزيز في اكثر من ثلاثين موضعاً كما قاله السيوطي في كتابه حسن المخاضرة في اخبار مصر والقاهرة بعضها بطريق الصراحة وبعضها بطريق الكناية وقد ورد في مصر عدة اخبار منها ما روي عن كعب بن مالك عن ابيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا فتحتم مصر فاستوصوا باهلها خيراً فان لهم ذمة ورحماً . وفي صحيح مسلم عن ابي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ستفتحون مصر وهي ارض يسمى فيها القبط فاستوصوا باهلها خيراً فان لهم ذمة ورحماً . وقال صلى الله عليه وسلم اذا فتح الله عليكم فاتخذوا بها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير اجناد الارض فقال ابو بكر ولم يارسول الله قال لانهم اوز واجهم في رباط الى يوم القيامة

وكما حديث ان مصر ستفتح فانتجعوا خيرها ولا تتخذوها داراً فانه يساق اليها اقل

الناس اعماراً فهو حديث منكر جداً وقد اورده ابن الجوزي في الموضوعات
ومن الآثار الموثوقة في فضل مصر ما اخرج به ابن عبد الحكم عن عبد الله بن عمرو قال
قبط مصر اكرم الاعاجم كلها واسمهم بداً وافضلهم عنصراً واقربهم رحماً بالعرب عامة
وبقرش خاصة ومن اراد ان ينظر الفردوس او ينظر الى مثلها في الدنيا فلينظر الى ارض
مصر حين تخضر زروعها او تنمو اثمارها . واخرج ابن عبد الحكم عن ابي رهم السماعي الصحابي
رضي الله عنه قال كانت مصر فناظر وجسوراً بنقديرو تدبير حتى ان الماء ليجري تحت منازلها
وافيتها فيسكونه كيف شاؤوا ويرسلونه كيف شاؤوا فذلك قوله تعالى فيما حكى عن فرعون
أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي افلا تبصرون . ولم يكن في الارض يومئذ
ملك اعظم من ملك مصر وكانت الجنات بجانب النيل من اوله الى آخره من الجانبين جميعاً
ما بين اصوان الى رشيد سبعة خليج . خليج الاسكندرية وخليج سخا وخليج دمياط وخليج
منف وخليج النيوم وخليج المنهى وخليج سردوس جنات متصلة لا ينقطع منها شيء والزرع ما
بين الجبلين من اول مصر الى آخرها وكان المسافر يسير من اسكندرية الى اصوان بلا
زاد في ظل واشجار وفواكه الى ان يصل الى مدينة اصوان

وعن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما قال لما خلق الله تعالى آدم مثل له الدنيا شرقها
وغربها سهلها وجبالها وانهارها وبحارها وبنائها وخرابها ومن يسكنها من الامم ومن يملكها من
الملوك فلما رأى مصر رأى ارضاً سهلة ذات نهر جار مادته من الجنة تنحدر فيه البركة
وتمزجه الرحمة ورأى جبلاً من جبالها مكسواً انواراً لا يخلو من نظر الرب اليه بالرحمة في
سفحه اشجار مثمرة فروعها في الجنة تستقي بالرحمة فدعا آدم في النيل بالبركة ودعا في ارض
مصر بالرحمة والبر والتقوى وبارك في سهلها وجبالها سبع مرات

وعن عبد الله بن سلام قال مصر ام البركات تعم بركاتها من حج بيت الله الحرام من
اهل المشرق والمغرب وان الله تعالى يوحي الى نيلها في كل عام مرتين عند جريانه يوحي اليه
ان الله يامرك ان تجري فيجري كما يؤمر ثم يوحي اليه ثانياً ان الله يامرك ان تغيض
حميداً فيغيض . وان بلد مصر بلد معافاة واهلها اهل عافية وهي آمنة ممن يقصدها بسوء .
ومن ارادها بسوء كبه الله على وجهه ونهرها نهر العسل ومادته من الجنة وكفى بالعسل
طعاماً وشرباً .

وعن كعب قال في التوراة مكتوب مصر خزائن الله كلها من ارادها بسوء قصمه
الله . وعن عقبة بن مسلم ان الله يقول يوم القيامة لساكني مصر يعدد عليهم النعم اما

اسكنتمكم مصر فكنتم تشبعون من خيرها وتروون من مائها . وقال ابو الربيع السائح نعم
البلد مصر يُحج منها بدينارين ويُغزى منها بدرهمين يريد الحج من بحر القلزم والغزو الى
الاسكندرية وسائر سواحل مصر

وقيل ان يوسف عليه السلام لما دخل مصر واقام بها قال اللهم اني غريب فخبها الى
كل غريب فمضت دعوته فليس يدخلها غريب الا احب المقام بها .

وكان بها من حكماء الطب والهندسة والكيمياء وعلم النجوم والرصد والطلسمات والحساب
عدة منهم افلاطون وبطليموس وسقراط وارسطاطاليس وجالينوس وكان في الازمنة الاولى
يذهب الى مصر ارباب العلوم والحكم لتكون اذهانهم على الزيادة وقوة الذكاء وولد بها عدة
من الانبياء وهم موسى واخوه هرون ويوشع بن نون

ودخل اليها عيسى وتوجه الى الصعيد ثم اقام بقرية هناك تسمى اهناش ودخلها ايضا
ابراهيم الخليل ويعقوب ويوسف والاسباط وارهيا ودانيال ولقمان الحكيم عليهم السلام .
ودفن بها من الصحابة والتابعين جماعة كثيرة وكان من اهلها مؤمن آل فرعون الذي اثنى
عليه الله في كتابه وكذا آسية امرأة فرعون وسحرة فرعون الذين آمنوا في ساعة
واحدة مع كثرتهم .

وقال المسعودي ان كل قرية من قرى مصر تصلح ان تكون مدينة على افرادها . وقال
القضاعي لم يكن في الارض اعظم من ملك مصر فانها لوزرعت جميعاً لوفت يجزاج الدنيا
باسرها ويوجد في مصر في كل شهر نوع من المأكول او المشوم فيقال رطب توت ورماني
بابه وموز هاتور وسمك كيهك وماء طوبه ورميس اي خروف امشير ولبن برمات وورد
برموده ونبق بشنس وتين بونه وعسل ايب وعنب مسرى . والسبع زهرات التي تجتمع في
اواخر الشتاء في وقت واحد ولا تجتمع في غيرها من البلاد وهي الترجمس والبنفسج والورد
النصبي والمجاني وزهر النارنج والياسمين والنسرين

وان اهل مصر الغالب عليهم الافراح واتباع الشهوات والانهاك في اللذات وتصديق
المحالات وفي اخلاقهم رقة وعندهم بشاشة وملقة ولا ينظرون في عواقب الامور وعندهم قلة
الصبر في الشدائد والقنوط من الفرج وشدة الخوف من السلطان ويخبرون بالامور المستقبلية
قبل ان تقع . ويقال مصر باقولها . ذكر ذلك في جواهر البحور »

(لعبد الله بن حجازي الشرقاوي)